



# محاضرات مادة

## تاريخ الأدب الجزائري المعاصر

المستوى: ماستر 2

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

الإشراف: د. محمد بن عبد الله  
إعداد: د. محمد بن عبد الله



# المحاضرة الثانية: أدب المقاومة

## (الأمير عبد القادر أديبا ومفكرا ومتصوفا)

تمهيد: (أدب المقاومة في الشعر الجزائري)

ما إن وطئت أقدام المستعمر الفرنسي الغاشم أرضَ الجزائر حتى أُشرع سلاح المقاومة في وجهه من قبل رجال الجزائر الأحرار، وبقيادة الأمير البطل المغوار، الأمير عبد القادر الجزائري، والعجيب في شأن الأمير أنه كان يقاوم بسلاحين؛ السيف والكلمة، فكان يخوض غمار المعارك في ساح الوغى وأشعاره تذكي حماسة الجيش وتصور بلاءه الحسن على طريقة فحول شعراء الحماسة القدامى كعنتره وامرئ القيس... ومن روائع أشعاره الحماسية الفخرية التي عبر بها عن شيم المقاومين الجزائريين وتغنى فيها بمآثرهم وتضحياتهم في سبيل الوطن، قصيدة (بنا افتخر الزمان)، التي يقول في مطلعها:

|                            |                             |
|----------------------------|-----------------------------|
| لنا في كُلِّ مَكْرمةِ مجال | ومن فوق السَّمَاءِ لنا رجال |
| ركبنا للمكارم كلَّ هول     | وخضنا أبحرا لها زجال        |
| إذا عنها تواني الغير عجزاً | فنحن الراحلون لها العجال    |
| سوانا ليس بالمقصود لَمَّا  | ينادي المستغيث ألا تعالوا   |
| لنا الفخر العيم بكل عصرٍ   | ومصرٍ.. هل بهذا ما يُقال؟   |
| ولو ندري بماء المزن يُزري  | لكان على الظمأ احتمالُ      |

وهي قصيدة فخمة فحلة جزلة تفيض شعرية وحماسة، وقصائده في هذا المجال كثيرة جداً. وعن اجتماع المقاوم بالأديب في شخص الأمير يقول عبد الملك مرتاض: "إنها تجربة فريدة في تاريخ المقاومة الوطنية أن نجد مجاهدا شاعرا، وشاعرا مجاهدا. أرايت أننا لا نظفر، في تاريخ الجزائر، بأيّ شاعر وصف معاركه مع الفرنسيين إذا كان حضرها؛ وإلاّ فالأمير عبد القادر يمثل شخصية المثقف الأديب المجاهد؛ وهذا نادر جداً" ويواصل قائلاً:

"إنّا لم نصادف شاعرا جزائريا في القرنين الماضيين على الأقل، إذن، بلغ المستوى الأعلى من المسؤولية السياسية والعسكرية كالأمير؛ فإما أن نصادف شاعرا فنجدّه يصف الوضع من بعيد، ودون الخوض في تجربة؛ كشعراء الثورة الجزائرية؛ وإما أن نصادف مجاهداً، مقاوماً، ولكنه لم يكن له من الشعرية نصيب".

على أنّ أدب المقاومة لم يقف عند تجربة الأمير عبد القادر، بل سائر مرحلة الاستعمار الفرنسي ولم يفارقها قط، متجلياً تارة عبر الشعر، وتارة عبر القصة، وتارة عبر الرواية باللسانين العربي والفرنسي، وتارة عبر المسرح، وتارة عبر الأدب الشعبي.. "من هنا كانت (الحرية) هي البعد الإنساني الذي تميّز به أدب المقاومة في الجزائر" فهيمن موضوع القضية الوطنية على الأدب الجزائري إبّان فترة الاحتلال، وكان بمثابة التزام من الأدباء تجاه الوطن والشعب، فكان أدب المقاومة، في تاريخ الأدب الجزائري، صفحات تير مرصّعة باللجين.

### 1/ نبذة عن الأمير عبد القادر:

هو الأمير عبد القادر بن محي الدين الهاشمي، طود شامخ في فضاء الأدب الجزائري، فارس السيف والقلم، جمع في شخصه ما تفرّق في القائد والمجاهد والفارس والشاعر والفقيه والمتصوّف، وُلد عام 1807م بالقيطنة (ولاية معسكر)، تلقى دروسه الأولى على يد والده، ثم انتقل إلى وهران، فحصل رصيда معرفيا في مختلف العلوم والفنون، ومنها سافر إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج براً عام 1825 صحبة والده. وخلال رحلته زار القاهرة ودمشق وبغداد، ثم حجّ مرة ثانية، وبعدها آب إلى أرض الوطن عام 1830، وهي السنة التي احتلت فيها مدينة الجزائر، فعزم الناس على المقاومة، ورغبوا في مبايعة والده، لكن هذا الأخير سلم الأمر إلى ولده، فبُوع أميراً عام 1832 لاشتهاره بالشجاعة والعلم والبراعة، فقام بأمر الجهاد وقاوم الجيوش الفرنسية الشديدة، في معركة عنيفة، كانت الحرب فيها سجّالا، حتى اضطر أحد قادة فرنسا إلى إبرام معاهدة صلح معه عام 1837، عرفت بمعاهدة تافنة، سلّموا بموجبها مدينة تلمسان التي بسطوا نفوذهم عليها، وبقيت تحت إمرته إلى أن استردّها الفرنسيون عام 1842 بعد نقض المعاهدة السابقة. ولمّا رأى أنّ الاستمرار في المقاومة لا يجدي نفعا سلّم الأمر لفرنسا عام 1847 بشروط، ثم نُقل إلى فرنسا وبقي

بأبواز محجورا عليه بها أربع سنوات إلى أن أُطلق سبيله، فارتحل بأهله إلى تركيا فاستوطن مدينة بروسة، وبعدها انتقل إلى دمشق إلى أن توفي بها عام 1883.

تميّز الأمير منذ صغره بالنباهة ورجاحة العقل وسعة الحفظ، فملكاته العقلية "كانت تدلّ على نبوغ غير عادي، فقد كان يقرأ ويكتب عندما كان في سن الخامسة من عمره، وقد أصبح طالبا عندما كان في الثانية عشرة؛ أي أنه كان في هذه السن متمكنا من القرآن والحديث وأصول الشريعة، وبعد سنتين بدأ يعطي دروسا في جامع الأسرة". اطلع الأمير على روائع الشعر العربي القديم، فحاول نسج قصائده على منوال قصائد فحول الشعراء القدامى، كعنتره، وامرئ القيس، وأبي فراس، وعمرو بن كلثوم، وقيس بن الملوح... والحاصل أنّه استطاع أن يجافي أسلوب شعر عصر الجمود والضعف\*، فارتقى به مستوى شعر الفحول، وبذلك جمع الشعر من أطرافه، وأخرج الفنّ من أصدافه.

## 2/ الأمير عبد القادر أديبا:

### أ- البعث والإحياء الشعري لدى الأمير عبد القادر:

لقد أصيب الشعرُ العربي إبان فترة الضعف والانحطاط بالركود والجمود، فبدا عوارُه وانطفأت ناره، فلم يعد ينبض بالحياة مثلما كان عليه في عصور ازدهاره على أيدي فحول الشعراء، بل صار جسداً بلا روح، تغشاه القروح؛ فقد شغل الشعراء أنفسهم بتزويق الأبيات وتنميقها، وتخمين القصائد وتشطيرها، وعمدوا إلى الزخارف اللفظية، والحلى البديعية، وألزموا أنفسهم والشعرَ ما لا يلزم، فطفح التكلف على خطابهم الشعري، وهزلت المعاني في ظلّ الاحتفاء المفرط بالمباني. وقد ظلّ الشعر على حاله إلى غاية العصر الحديث؛ حيث ظهر شعراء مفلقون بعثوا الروح في جسد الشعر البالي، وأحيوا طريقة فحول الشعراء في العصور الخوالي، من حيث المعاني السامية، والقيم الفنية الناضرة، والديباجة المشرقة.

بناءً على ما سبق كانت القصيدة الإحيائية "تأليفا جديدا، أو صياغة جديدة لقصائد الشعر القديم التي تجمعت وتراكمت في مناطق الوعي واللاوعي من ذاكرة الشعر الإحيائي،

---

\* لا يعني هذا أن عصر الضعف والانحطاط لم يعرف نماذج راقية رانقة من الشعر إطلاقا، وإنما الحكم يعود على السمة العامة لشعر ذلك العصر.

تلك التي تحولت إلى مبدأ حاسم في الإبداع الشعري. ولا أدل على ذلك من أن القصيدة الإحيائية لا تكف عن تذكيرنا بأصولها مؤكدة (...) الدور الذي قامت به القصائد المتذكّرة بوصفها الإطار المرجعي لعنصر القيمة في فعل "الإحياء" الذي لم يكن في واقع هذا التأويل سوى نوع من "البعث" الذي انبثق به الموروث في ميلاد جديد، بواسطة الشاعر الإحيائي الذي استعاد سلفه القديم من الذاكرة".

يجدر بنا بعد تحديد مفهوم الإحياء الشعري أن نطرح قضية الريادة في إحياء الشعر العربي في العصر الحديث، فمن يا ترى رائد الإحياء والبعث الشعري في العصر الحديث؟ ومن ذا الذي رفع ستار الجمود الذي أسدله عصر الضعف (العهد العثماني)؟

لقد ألفينا شبه إجماع بين الدارسين مفاده أن رائد الإحياء والبعث الشعري في الوطن العربي هو الشاعر المصري محمود سامي البارودي (1838-1904م)، وألّفت في هذا الشأن كتب تؤكّد هذا الزعم، منها على سبيل المثال (البارودي رائد الشعر الحديث) لشوقي ضيف، و(محمود سامي البارودي رائد الشعر العربي في العصر الحديث) لمحمد إبراهيم سليم... وهي كتب إذ تؤكّد ريادة البارودي للشعر الحديث، فإنّها تؤكّد في الوقت ذاته ريادته للإحياء والبعث، والدراسات في هذا الشأن كثيرة جداً.

ونحن نرى أن عزو الريادة للبارودي -فيما يخصّ إحياء الشعر- مغالطة تاريخية ومعرفية في آن؛ لأنّ هناك من سبق البارودي في إحياء الشعر العربي، وباقتدار، ونقصد الأمير عبد القادر الجزائري (1807-1883) الذي أحيا طريقة الشعراء المُجلّين القدامى في نسج أشعارهم من حيث متانة الأسلوب، وجزالة الألفاظ، وروعة التصوير، وسمو المعاني، وهو الصنيع ذاته الذي صنعه البارودي بعده بأعوام. ونحن إذا أردنا أن نوصّل لقضية الريادة، فيكفيّا الاحتكام إلى معيارين رئيسيين هما:

- المعيار الزمني (التاريخي): وهنا نجد الأمير عبد القادر متقدّماً في السنّ على البارودي بفارق زمني مقداره 31 سنة، ومعلوم أن الأمير كان شاعراً في سنّ مبكرة من عمره، ما يعني أنّه قال كثيراً من الشعر قبل ميلاد البارودي. وإذا ما افترضنا أن البارودي قال شعراً في الرابعة عشرة من عمره مثلاً، فإنّ الأمير حينذاك كان

في الخامسة والأربعين من عمره، ما يعني أنّ تجربته الشعرية تعزّزت غناءً ونضجاً.

- معيار طبيعة الشعر: ومما لا شكّ فيه ولا خلاف، أنّ شعر الأمير عبد القادر يندرج ضمن شعر الإحياء والبعث، مثلما هو حال شعر البارودي، فكلاهما احتذى حذو الشعراء القدامى من الخناذيد والمفلّقين، فارتقى شعرهما إلى مرتقى هؤلاء، والأمير في ذلك أسبق زمنياً.

فأنتى للبارودي أن يكون سباقاً في الإحياء الشعري؟ أمّا من احتكم إلى معيار الغزارة والكثرة في المادة الشعرية، فجعل البارودي رائداً بذلك، فلا شكّ أنّ حكمه واهن، ورؤيه واهم، فليس ذلك من الموضوعية في شيء.

هذا وقد لاحظنا أنّ كثيراً من الدارسين لا يزالون يتحيزون إلى المشرق على حساب المغرب، فيما يخص الريادة والجودة ولو على حساب الحقائق التاريخية، فالمشرق في نظرهم ينبوع العلم والأدب، وها هو أحد الدارسين يذهب إلى أنّ الإحياء الشعري تأخّر كثيراً في المغرب العربي مقارنة بمصر خصوصاً والمشرق عموماً، فيقول: "كما يختلف شعراء مرحلة الإحياء والتقليد في اتجاهاتهم وموقفهم من التراث الأصيل، وميراث عصر الانحسار الذي كانوا قريبين منه والنزوع إلى التجديد، تختلف الأقطار العربية نفسها في البدء التاريخي لهذه المرحلة، فبينما نجدها مبكرةً في مصر والشام، تأخّر ظهورها في بقية العالم العربي لظروف سياسية وثقافية، فتأخّر ظهورها قليلاً في العراق، وتأخّر ظهورها كثيراً بدرجات متفاوتة في الجزيرة العربية والسودان والمغرب العربي بأقطاره المختلفة"، وفي هذا جهل أو تجاهل لريادة الأمير عبد القادر الجزائري في الإحياء الشعري، وإقصاء أو تهميش للأدب المغاربي عموماً.

ولعلّنا نتساءل عن سرّ هذه المغالطة المعرفية والتاريخية معاً، والمتعلقة بقضية الريادة في الإحياء الشعري، فنبادر بالإجابة مقدّمين هاذين السببين:

- إنّ الوقت الذي كان فيه الدارسون المشاركة يؤرخون لأدبهم، معتمدين المنهج التاريخي، كانت الجزائر ترح تحت نير الاستعمار الفرنسي؛ فلم تنتهياً الظروف لدراسة أدبنا وتحقيقه، فالتفتوا إلى أدبهم، وغضوا الطرف عن أدبنا وأدبائنا، في ظلّ

غياب من ينهض بمهمة التعريف بالأدب الجزائري، فكان من الطبيعي بعد ذلك أن يعزوا الريادة لأدبائهم في مجال الشعر والرواية والمسرح...

- بعد استقلال الجزائر، بعثت الدولة الجزائرية كثيرا من طلبتها إلى المشرق بغرض التحصيل والتكوين، فدرسوا على أيدي الأساتذة والدارسين الذين أثبتوا الريادة للبارودي في الإحياء على حساب الأمير، ولمّا عادوا إلى الجزائر أساتذةً أثبتوا لطلبتهما ما أثبتته أساتذتهم لهم، فكانت النتيجة امتداد هذه المغالطة ورسوخها لدى الطلبة والباحثين المشاركة والجزائريين على حدّ سواء، والأمر ذاته أيضا بالنسبة للأساتذة المستقّمين من المشرق للتدريس في الجامعات الجزائرية.

غير أنّه بسكون غلواء الاتباع المشرقي طفحت على مستوى الدراسات المغاربية عموما والجزائرية على وجه الخصوص خطابات تأصيلية، أعادت الاعتبار لكثير من الريادات، ومنها ريادة الأمير عبد القادر في مجال الشعر العربي الحديث، ومن ثم ريادته في الإحياء الشعري، من نماذج ذلك دراسة للأستاذ محمد بشير بويجرة بعنوان (الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث) فكانت بمثابة ردّ فعل طبيعي لدراسات المهمّشة لريادة الأمير.

ولا ينبغي أن ينصرف الذهن إلى أن كلّ الدراسات المشرقية متحيّزة، فهناك دراسات كثيرة موضوعية، ونحن إذ أشرنا إلى ما سبق، فمن باب تشخيص الحالة وكشف أسبابها فحسب.

#### ب- خصائص شعر الأمير (تجليات الإحياء في شعر الأمير عبد القادر):

يتجلى الإحياء الشعري عند الأمير عبد القادر على مستوى الأسلوب والبناء العام للقصيدة، والمعجم الفني، والتراكيب، والمعاني، والإيقاع، والصور الفنية.. وقد عمد في كلّ ذلك إلى شعر شعراء الحماسة والفخر والغزل؛ كعنترة وامرئ القيس وأبي فراس والمتنبي، وقيس بن الملوّح، وغيرهم، فكان أسلوبه حيّاً مشرقاً، حيث ما إن نقرأ للأمير قصيدة حتى تسارع إلى أذهاننا قصائد عالقة بذاكرتنا تعود إلى تراثنا الشعري.

أمّا القاموس الشعري فقد استمدّه الأمير من المدونة التراثية؛ من ذلك (ريح القرنفل، جديل، تبلبل، الصقيل، البيض، طُرّ، السّمّاك، ربة الخدر، رخم الحواشي، حشاشة، بيض

الهند، القنا...) وبذلك لم يجرؤ الأمير على استخدام قاموس شعري يستمدّه من واقعه وعصره، فهو يحدثنا عن السيف والرمح في معركة أصيب فيها بالرصاص، ويركّز على الكرّ والفرّ والطراد والمناورة بالفرس، وينسى أزيز الرصاص ودويّ المدافع وشظايا القذائف، ويكثر من ذكر "الرقمّتين" و"رضوى" وأماكن أخرى في الحجاز ويتحاشى ذكر المناطق التي عاش فيها أو انتقل إليها خلال الجهاد والمقاومة أو المنفى والإقامة\*، وكأنّه يرى في ذكر البندقية أو الرصاص خروجاً عن تقاليد القصيدة العربية المتميّزة بذكر الفرس والرمح والكرّ والفرّ وما إليه، كما أبدى تعلّقه بذكر أماكن في الحجاز، وعبرَ عن حبّه العميق عن أرض الجدود الهاشميين.

فضلا عن ذلك، فقد كان يجمع في قصائده بين الفخر والغزل على طريقة عنتره وأبي فراس وعامة شعراء الحماسة والفروسية، وأغلب المعاني والصور الفنية قديمة كشكوى الهجران والتألم من البعاد، وتمني لقاء الحبيب، والشوق إلى زوجته (أم البنين)، وهو في كلّ قصيدة يشبّه الوجه بالبدر، والقامة بالرمح، وهو في ذلك مثل عامة شعراء الاتجاه الإحيائي؛ حيث إنّ الشاعر الإحيائي "يتّخذ من العالم العربي القديم عالماً مثالياً، يخفق له قلبه، وبهيم به خياله، ويشدّ إليه وجدانه؛ لأنّه عالم الآباء الأماجد والتاريخ العريق والدولة العربية الإسلامية الغالية. ومن هنا كان يستمدّ الشاعر كثيراً من صوره من هذا العالم، بل يجمع بعض الألوان والخطوط من الصحراء، فيرسم خيامها وكثبانها وبانها، ويتغنّى بهند وأسماء وسعاد والرياب، ويكيّ الرسوم والأطلال، ويذكر أماكن تعود ذكرها الشاعر القديم كالعقيق ونجد، ويشبّه الحبيبة بنفس طريقة ذاك الشاعر القديم، فيجعل قوامها غصناً، وإشراقها بدرًا، ونفرتها ظبيًا". ومع ذلك استطاع الشاعر الإحيائي، ومدار حديثنا عن الأمير عبد القادر، أن يعبرَ عن تجاربه النفسية والاجتماعية وحياته الجهادية ومقاومة المستعمر الغاشم، ونزعته الصوفية، ولم يحُل أسلوبه الشعري القديم دون ذلك قطّ.

وأما عن مطالع قصائده، فيفتتح بعضها بالتشبيب وذكر الحبيب على طريقة القدامى - كما سنرى في النموذج الآتي - أو يفتتحها بعبارات أو مفردات شهيرة معهودة مألوفاً في مطالع قصائد الشعراء القدامى، مثل: (خليلي).

---

\* ذكر الأمير في بعض قصائده مناطق في الجزائر وتركيا، ولكن ذكرها قليل جداً، منها: وهران، خنق النطاح، برج العين، غريس، بروسة، حكرّة.

ولنا أن نقف -بعد كلّ الذي ذكرنا- على نموذجين من أشعاره، أحدهما في الفخر والحماسة، والآخر في الغزل.

### • نموذج في الحماسة والفخر:

يقول في قصيدة له بعنوان (بي يحتمي جيشي):

|                                  |                                |
|----------------------------------|--------------------------------|
| تُسائلني أمّ البنين وإنّهما      | لأعلم من تحت السماء بأحوالي    |
| ألم تعلمي يا ربّة الخدر أنّي     | أجلّي هموم القوم في يوم تجوالي |
| وأغشى مضيق الموت لا متهيباً      | وأحمي نساء الحيّ في يوم تهوال  |
| يتّقن النساء بي حيثما كنت حاضراً | ولا تتّقن في زوجها ذات خلخال   |
| أميرٌ إذا ما كان جيشي مقبلاً     | وموقد نار الحرب إن لم يكن صالي |
| إذا ما لقيتُ الخيل، إنّني لأولّ  | وإن جال أصحابي فإنّي لها تال   |
| أدافع عنهم ما يخافون من ردى      | فيشكر كلّ الخلق من حسن أفعالي  |

فنلاحظ كيف افتتح الأمير قصيدته الفخرية بذكر ابنت عمّه أمّ البنين، مبرزاً في الآن ذاته مكانته بين قومه رجالاً ونساءً، مستعملاً ألفاظاً جزلةً مناسبة لمقام الحماسة (أغشى، مضيق الموت، تهوال...) كما استعمل في هذه القصيدة ألفاظاً معهودة في قصائد شعراء الحماسة القدامى مثل (ربّة الخدر، القنا، يوم الطعان...)، والمعاني مستمدة من شعر هؤلاء أيضاً، حيث يعتدّ الأمير بذاته اعتداد كبيراً، مخاطباً أمّ البنين ومطلعاً إيّاها ببلائه الحسن في معاركه ضد العدو، على طريقة عنتره. ويعتدّ الأمير بنفسه إلى درجة أن فرسه يشكو إليه شدة الألم من وقع الرماح، فيهوّن عليه الأمير، ويدعوه إلى التحمل والصبر مثله:

إذا ما اشتكتُ خيلي الجراحَ تحمماً      أقول لها صبراً كصبري وإجمالي

وهذا البيت يحيلنا على بيت عنتره في معلّته حين يصوّر فرسه وهو يشتكي إليه،

يقول:

فازور من وقع القنا بلبانه \*\*\* وشكا إليّ بعبرة وتحمم

فهي صورة فنية استوحاها الأمير من شعر شاعر الحماسة عنتره.

ثمّ يطلب الأمير من محبوبته مفاخرًا أن تسأل من شهد الواقعة من جيش الفرنسيين  
عن بطولته وشجاعته وبلائه الحسن في المعركة، فيقول:

وعنّي سلي جيش الفرنسيّ تعلّمِي      بأنّ مناياهم بسيفي وعسالي  
سلي الليل عنّي كم شققت أديمه      على ضامر الجنين معتدل عال  
سلي البيدَ عنّي والمفاوز والربى      وسهلا وحزنًا كم طويت بترحالي

وإذ يطلب الأمير من أم البنين أن تسأل غير العاقل عن بطولته، فإنّ الأمر ماثل في  
معلقة عنتره، هذا الذي يطلب من ابنت مالك أن تسأل الخيل عن بطولته:

هلاً سألتِ الخيلَ يا ابنة مالكٍ \*\*\* إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلّمي  
يُخبركِ مَنْ شهد الواقعة أنّني \*\*\* أغشى الوغى وأُغفّ عند المغنمِ

فنلاحظ أن التقاطع بين شعر الأمير وعنتره جليّ واضح، إلى درجة أنّنا لا نكاد نفرّق  
بين أسلوبهما وصورهما ونسجهما ومعانيهما الشعرية.

#### • نموذج في الغزل:

تتميّز غزليات الأمير بكونها غزليات عفيفة، معانيها رقيقة، ألفاظها عذبة سلسة،  
عاطفتها حيّاشة، يشكو فيها البعاد عن ابنة عمّه أم البنين، يقول في إحدى قصائده الغزلية:

أقاسي الحبّ من قاسي الفؤاد      وأرعاه ولا يرعى ودادي  
أريد حياتها وتريد قتلي      بهجرٍ أو بصدٍّ أو بعباد  
وأبكيها فتضحك ملء فيها      وأسهر وهي في طيب الرقاد  
وتعمى مُقلتي إمّا تتأهت      وعيناها تعمى عن مرادي  
وتهجرني بلا ذنب تراه      فظُلّمي قد رأت دون العبادِ

فالأمير رجلٌ قويّ جلدٌ عصيّ في حماسياته، ولكنّه أمام زوجته يرقّ ويضعف، فيقول:

ومن عَجَبٍ تهاب الأسدُ بطشي      ويمنعني غزالٌ عن مرادي

هكذا استطاع الأمير عبد القادر أن يجافي أسلوب شعر عصر الضعف، مستلهما ما في التراث من معان سامية، وصور حيّة، وتراكيب قوية، وألفاظ نديّة، فعُدَّ بحقّ رائد الإحياء والبعث الشعري في العصر الحديث، وقد سلك البارودي بعده المسلك نفسه -دون الزعم بتأثر هذا الأخير بالأمير- في إحياء الشعر العربي في المشرق، فظهر اتجاه بعدهما سمي بالاتجاه المحافظ.

### 3/ الأمير عبد القادر مفكرا:

إلى جانب القيادة والسياسة والأدب والشعر، يعد الأمير عبد القادر أحد رجال الفكر في العصر الحديث، يتجلى لنا ذلك من خلال كتبه ورسائله، ففي كتابه (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) تناول قضايا فكرية عديدة تدور حول العلم والعلماء، وقيمة العقل في الإدراك، وضرورة إدراك الحق بالدليل، والعلم الشرعي، وفضل الكتابة وأبعادها عند الأمم... وهو في كل ذلك كثير الاستشهاد بالشواهد الحسيّة من الواقع المعيش، وهذا مقتطف من كلامه في الفصل الأول من كتابه، يقول: "... اعلّموا أنّ الإنسان، من حيث حصوله في الحيز والمكان، فجسم كسائر الأجسام، ومن حيث يتغذى وينسل، فنبات، ومن حيث يحسّ ويتحرّك بالاختيار، فحيوان، ومن حيث صورته وقامته، فكالصورة المنقوشة على الحائط. وكما أنّ الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن الهيئة، فيكون الفرس مخلوقا لأجل تلك الخاصية. فإن تعطلت منه، نزل إلى مرتبة الحمار، فكذاك الإنسان، يشارك الجمادات والحيوانات في أمور، ويفارقها في أمور، هي خاصيّته، وبها شرفه، فما حصل له الشرف بعظم شخصه، فإنّ الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته، لأنّ الأسد أشجع منه، ولا لأكله، فإنّ الجمل أوسع منه بطنا، ولا لجماعه، فإنّ أخس العصافير أقوى منه جماعاً، وإنما شرف الإنسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات، هي العلم، وبها كماله". وتتجلى صورة الرجل المفكر، أيضاً، في كتابه (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد)، وقد استهل كتابه بمثل ما استهل كتابه السابق، أي تأكيدَه على قيمة العقل في إدراك الحقائق العلمية والكونية والدينية، مُورداً حججا وبراهين عقلية ومنطقية تثبت أنّ الله عز وجلّ هو خالق هذا الكون العظيم، قطعاً و يقيناً.

### 4/ الأمير عبد القادر متصوفاً:

يظهر لنا الأمير بشخصية أخرى غير شخصية القائد والأديب والمفكر، ونقصد شخصية المتصوف، وبدايات تصوفه تعود إلى رحلته مع والده إلى المشرق، أين تعرّف على بعض الطرائق الصوفية. وقد توغل الأمير في آخر عمره في التصوف، وأظهر من الرقائق والمعارف الروحية ما أشار إلى سموّ مقامه ورفيع قدره، وتنقسم حياته الروحية إلى ثلاث مراحل:

الأولى: هي المرحلة التي سافر فيها إلى دمشق مع والده، فأخذ عن علمائها وتلقى الطريقة النقشبندية فيها عن الشيخ خالد النقشبندي، والطريقة القادرية التي تلقاها ببغداد عن الشيخ محمود الكيلاني القادري. وبعد ذلك رجع إلى الجزائر فأنشأ مراكز في القرى وبين القبائل لنشر الطريقة القادرية، وكان هؤلاء هم الذين غدّوا حركة الجهاد التي قام بها الأمير.

الثانية: مرحلة عزلته وخلوته في مدينة أمبواز حين كان سجيناً.

الثالثة: هي المرحلة التي تمّ له فيها الترقّي الصوفي، وصل إليها في مجاورته بمكة المكرمة، حيث أقبل على العبادة والخلوة، والتقى بالشيخ محمد الفاسي الذي أعطاه الطريقة الشاذلية.

وتتجلى لنا شخصية الأمير المتصوف ومذهبه الروحي الصوفي من خلال كتابه (المواقف الروحية والفيوضات السبوحية) الذي ألفه بدمشق، وفيه تناول بالشرح والتفسير كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بأسلوب صوفي، وقد استهله بقوله: "هذه نفثات روحية، وإلقاءات سبوحية، بعلوم وهبيّة، وأسرار غيبية، من وراء طور العقول، وظواهر النقول، خارجة عن أنواع الاكتساب، والنظر في الكتاب، قيّدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا"، ولا يترك الأمير قارئ كتابه في حيرة من معرفة توجهه المذهبي، بل يبادر ببيان ذلك قائلاً: "وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم، ولا الحكيم المعلم، ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة، وسنة الرسل المرسلّة، وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين، والصحابّة والتابعين، والسادات العارفين"، فما في الكتاب من علم، إذن، إنما هو من قبيل العلم الموهوب لا المكتسب مثلما أشار.

وللأمير أشعار كثيرة في التصوف، تضمّنّها ديوانه.

